

## عاداتنا المستنكرة

من قبل نحو ٢٣٠٠ سنة قال ارسطوطاليس إن الأخلاق هي العادات . وعلى الرغم من الزمن الطويل الذى يفصل بيننا وبين هذا الفيلسوف لا يزال هذا التعريف قائماً . فأخلاقنا هي الاستجابات المختلفة التى نستجيب بها لحوادث الوسط الذى نعيش فيه . بل الآراء والميول والأهواء إنما هي أيضا عادات فى طور الكون سرعان ما تظهر وتعود أخلاقا واضحة عند ما تحين المناسبة وتتاح الفرصة .

ويجب لذلك أن نعرف أن لنا نحن المصريين من الأخلاق الحسنة أو السيئة بمقدار ما لنا من عادات حسنة أو سيئة . ولا تخلو أمة من عادات مستهجنة تنفوس فى بعض الأوساط أو تتصل ببعض التقاليد . ولكن الأمة الحية التى تلبه ضميرها لمعنى الرق ومغزى الحضارة يجب ألا تبتعد عن محاربة الميئ من عاداتها وتشجيع الحسن منها . ولذلك يحسن بنا من وقت لآخر أن نشير إلى عاداتنا السيئة ونذبه الأذهان إلى الأضرار التى تعود منها .

ومما يجب أن نلاحظه أن معظم عاداتنا المستهجنة إنما يمارسه أعضاء الجنس اللطيف فالمرأة هي التى تتعلق بهذه العادات وهي التى تجعل جنازاتنا مهازل . وهي التى تؤمن بالسحر والشعوذة .

وهي التى تمارس الزنا . وهي التى تستنشى بالأضرحة والتمائم وغير ذلك مما لا يعرفه الرجال أو لا تعرفه غير أقلية صغيرة منهم . وهنا يجدر بنا أن نتساءل : أليست هناك علاقة بين تأخر التعليم بين نساءنا وبين تعلقهن بهذه العادات المستهجنة ؟ وإذا صححت هذه العلاقة فإننا يجب أن ننظر من رجال التربية والتعليم أن يجعلوا لهذه العادات المكانة التى تستحق من الزجر والنهي ، حتى تنشأ فتيات الجليل الجديدهن ينفرن من هذه العادات التى تزرى بكرامتنا وتؤذى صحتنا وتجعل مجتمعا موضوعا للسخرية عند الأجانب .

وربما كان للوث وما يستتبعه من مآثم بالدار أو موكب للجنازة فى الطريق أعظم نصيب من هذه العادات المستهجنة . والمدينة والريف سواء فى هذه العادة . فان لطم الخدود

وصيغها بالنيل وعقد المناحة الصاخبة ، كل هذا قد زال من المدينة لا يزال من العادات الفاشية في الريف . على أن المدينة لا يزال لها نصيبها في الموكب حين نرى الجنازة وهي محمولة على الأعناق وقد سبها جيش كبير من حملة المبائر والنهائم والمولوية . كما نرى أحيانا من الخلف نسوة عديدات قد اقتعدن العربات الكارة وهن متجللات بالسواد ينحن بأصوات عالية حول امرأة قد احترقت الحداد والزناء تعدد صفات المتوفى في لحن موقع .

وقد أصبح هذا المنظر مألوفاً عند السياح من الأجانب يشقون صورته الفوتوغرافية ويحتفظون بها كأنها بعض أخلاقنا الوطنية . وهذا هو الذي يجب أن يحز في نفوسنا ويستثير فينا هذه الكرامة الوطنية المجروحة . والسأخ الذي يمول في شوارع القاهرة لا يمكننا - مهما فعل - أن نمنعه من خطف هذه الصور المهينة ينشرها على العالم المتمدن . ولذلك ينبغي على المرين وعلى الموظفين المختصين وعلى كل فرد من الجمهور أن يكون ناصحا متصحا في مثل هذه الظروف . وأن يرد إلى الموت هيبته ووقاره . فإذا كان لابد من موكب للجنازة فيجب أن يسير في صمت وخشوع . لأنه عظة ناطقة للأحياء بمصيرهم القريب أو البعيد . والعظة لا تستقبل في مثل هذا المخرج والمخرج الذي نراه حول جنازاتنا . وصحيح إن الحكومة تستطيع أن تسن القوانين الرادعة ولكن القوانين تحتاج في كل وقت إلى تأييد من الرأي العام ولذلك يجب تربية أفراد الجمهور على استهجان هذه العادات .

ويمكن أن يعد الموت في مصر "عقدة" اجتماعية لأنه يجمع حوله طائفة من العقائد والعادات التي توارثناها منذ مئات السنين . وهي جميعها في حاجة إلى التسقيح أو إلى الإلغاء فاننا إذا تركنا مناخ الدار وموكب الجنازة وجدنا أن للجبانة عادات أخرى سيئة ، لعل أبرزها هو المبيت بين القبور . فان ذوى المتوفى يعمدون في مواسم معينة إلى الجبانة وهناك يقضون ليلة أو ليلتين . ومثل هذه المواسم هي على الدوام فرصة لارتكاب الجرائم حيث تقع السرقات والاعتداءات . بل إن هذه العادات تحمل ذوى المتوفى على أن يشيدوا فوق القبر بشاء يكاد يكون دارا يقيمون فيها في هذه المواسم . وهذا البناء هو تكليف كثيرا ما يكون باهظا لبعض الأسر التي تنساق إليه بالمقتضيات الاجتماعية . فلو نصحتنا واتصحتنا وامتنعنا عن إقامة هذه الأبنية واقتصرنا على القبر وكففتنا عن المبيت بالجبانة لكسبتنا الكسب العظيم في أخلاقنا وأموالنا .

ومن العادات المستهجنة التي لا تجدى فيها غير النصيحة عادة الزار ، الذي تقدم حفلاته خفية في البيوت . وهو مزيج من السحر والشعوذة والمستريا والنورستيزيا تجتمع فيه المرأة

أو الفتاة السليمة التي يربها التطلع أو التهتك، والمرأة المريضة التي تحتاج الى عناية الطيب .  
وتسرف عليه جماعة من النسوة يدعين لهذه الحفلات للاستغلال والكسب . والجهل هنا  
يستغل الى أقصى . فان الشعوذة تعود طبا والاسراف بل السفه في انفاق المال - وهو  
عادة مال الفقير - يعود حكمة وبرا . والأمراض النفسية التي يدعى علاجها هؤلاء  
المشعوذات قد أصبحت علما له نظرياته ومعارفه وتجاربه وله خبراؤه وأطبائوه . وكلنا  
يسلم الآن بأن العقل الباطن قد يطفى ويفتكك الشخصية أو يفقتها أو يجهلها شيئا آخر  
لم تكنه من قبل . ومثل هذه الحال تحتاج الى العلاج الفنى لا الى هذه الشعوذة التي تمارس  
بين دق الطبل واحراق البخور واشعال الشموع ورقص الزانصات .

ومن عاداتنا المستهجنة هذا الاستشفاء بالأضرحة وتعليق التمام . فان للأمراض أسبابا  
يعرفها الطيب . وهو اذا لم ينجح في علاجها فلن ينجح غيره . وصحيح إن لقوة الاستهواء  
أثرها في الشفاء . ولكن مثل هذا الأثر يمكن أن نجنيه من كلمة الطيب دون الالتجاء  
الى الأضرحة أو تعليق التمام . وكما لا يخفى على أحد أن زيادة المرضى للأضرحة وتمسحهم  
بالحدار أو الأساطين واختلافهم اليها مع اختلاف أمراضهم قد يؤدي الى نقل العدوى من  
المريض الى السليم أو من المريض الى مريض آخر بمرض آخر .

ومعظم هذه العادات المستهجنة يرجع إلى النساء . وقد علمنا ذلك بأن الجهل لا يزال  
فاشيا بين نساءنا أكثر من فشوه بين رجالنا . ولذلك لا يسعنا إلا أن نعين العلاج أيضا  
في التعليم . فيجب على رب الأسرة أن يحارب هذه العادات في أبنائه وبناته بتعليمهم ، وأن  
يذكر أن تعليم البنات لا يقل قيمة عن تعليم الابن . وإذا نجحنا في تعميم التعليم بين فتيات  
الجيل الجديد فان هذه العادات التي تبث الجهل في نفوسنا تزول أو لاتعود لما غير الأهمية  
التاريخية في بعض الأطراف النائية من قرى الريف .

على أن هناك عادات أخرى مستهجنة لانستطيع إن نقول إن المرأة هي العلة في تفشيها  
أو على الأقل ليست هي العلة الوحيدة . فنحن في ضيافتنا ننفق كثيرا ونسرف في توفير  
الطعام كما وكيفا كأن البيت قد استحال إلى مطعم . مع أن الضيافة مسامرة ومؤانسة وبساطة  
قبل أن تكون مؤاكلة . وهذا البذخ الذي نبديه في ضيافتنا كثيرا ما يحلنا على أن نباعد بين

فترات الدعوات فلا تراور إلا قليلا لأننا لا نطبق تكاليف المائدة المطهمة والألوان العديدة .  
ولو أننا عمدنا إلى البساطة والاقتصاد في التكاليف لزادت زيارتنا فازددنا في التعارف  
وتوثق الصلات .

ومثل هذا يقال أيضا عن الاحتفال بالزواج ، فإن النغالى في المهور وتكليف الأسرة شراء  
الإكداس من الأثاث والفراش والملابس يهبطها وقد يؤدي بها إلى الوقوع في الديون  
المرهقة ، كما أن ليلة العرس — وأحيانا ليالى العرس — قد تتجاوز تكاليفها حدود الطاقة  
عند الأفريقيين من ذوى العروسين . وهذا الحال كثيرا ما يؤدي حسابها إلى الخوف من الزواج  
أو تأخير وقوعه وتأجيله إلى المستقبل البعيد .

إن لنا عادات تستحق المكافحة إما بالفائها وأما بتفقيحها . وهى لا تضرنا فى صحتنا وحدنا  
بل تؤذينا فى أموالنا كما تجعلنا أضحوكة فى نظر الأجانب . فىجب أن نبادل النسيحة فى شأنها  
ونستصلحها حتى يقدوم معنا راقيا يستدعى الإعجاب . والأخلاق هى — كما قال أرسطوطاليس —  
لا تزيد على أن تكون عادات . فلكى تسمو أخلاقنا يجب أن نصلح عاداتنا .